رحيل

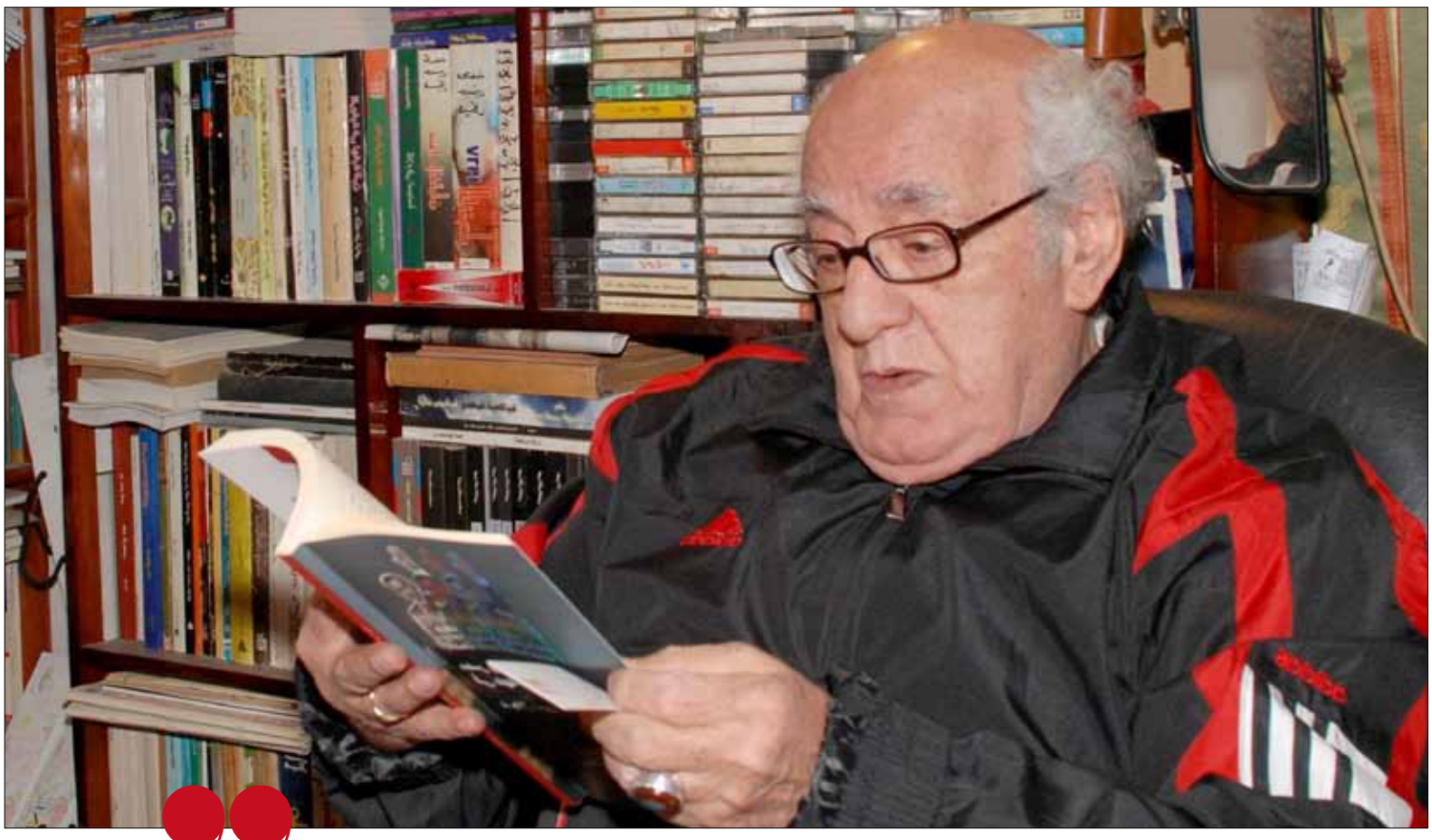

خيري شلبي حكواتي الهوامش المنسية

صاحب «وكالة عطية» أغمض عينيه في لحظة غفلة، ليفقد الأدب العربي أحد أهم أعمدة السرد في الستينيات. الكاتب العارف بأسرار المدينة، خاض معركته ضد الاستبداد والمتأسلمين حتى الرمق الأخير

القاهرة ـ **محمد شعير**

فُجعت مصر يوم أمس برحيل أحد أبرز أدبائها ومثقفيها خيري شلبي (1938) الذي شيّعته العائلة والأصدقاء يوم أمس إلى مثواه الأخير في قرية «شباس عمير»، في دلتا القاهرة. لم يكن مريضاً. في الثانية فجر الجمعة، اتصل بصديق عمره إبراهيم أصلان. تحدثا طويلاً كما اعتادا في شؤون الصحافة والثقافة وشجون السياسة. عاد شلبي بذاكرته إلى أربعينيات القاهرة، متذكّراً صحافة محمد التابعي ومصطفى أمين. وفجأة أنهى المكالمة ليستكمل كتابة مقاله. طلب من زوجته كوب لبن دافئ. ذهبت لتعدّه، وعادت لتفاجأ به وقد فارق الحياة. ظنت أنّها مجرد مزحة منه، هو المعروف بمقالبه مع الأصدقاء.

صرخت: «أكيد إنت بتهزّر معايا». الذين يعرفون صاحب «موال البيات والنوم» يعرفون عشقه للحياة. هو أحد خبراء القاهرة، العارف بأسرار المدينة، وحواريها، وأزقتها، ومطاعمها، وباراتها... ومقابرها! حيثما تُـوَلّ وجهك، تجد خيري شلبي، عارفاً بتاريخ المكان والزمان. عمله في الإذاعة والمسرح والصحافة أتاح له أن يعرف كثيرين معرفة عميقة أهّلته لأن يدخل كواليس السياسة والثقافة والفن في مصر، ما انعكس براعةً في كتابة فن البورتريه الذي أصدر منه أربعة أجزاء، عن شخصيات سياسية وثقافية وفنية مصرية وعربية وعالمية.

الذين يعرفون «العم خيري» يعرفون أيضاً أنّه أحد ملوك الكلام في العالم العربي. لا يمكنك أن تستوقفه عندما يبدأ سرد حكاياته. دائماً ما كنّا نسأله متى سيكتب سيرته، وكان يردّ: «لا أملك حق نشر ما أعرف، لأنها حكايات تخصّ الآخرين»! لكن العم خيري نشر قبل أيام من رحيله الجزء الأول من سيرته «أنس الحبايب» (الهيئة العامة للكتاب) عن أيام الطفولة والتشرد، وأهل قريته المنسيين، وطقوسهم السحرية، والكتب التي سحرت خياله وقادته إلى عالم الأدب. وتوقف عند بدايات كتابة القصة الرومانسية، واعداً القارئ باستكمال السيرة في أجزاء أخرى... لكن الحياة لم تعطنا ما كنّا نتوقع.

صاحب «الوتد» يترك أكثر من 70 كتاباً تضعه في مكانة متفردة في تاريخ الرواية العربية، رغم ظروف الحياة الصعبة التي واجهته. كان صاحب مدرسة خاصة، مناقضة ربما لمدرسة الحداثة التي مثّلها إدوار الخراط. شلبي كان يكتب على الأرض، عن الواقع والتراب، عن الهوامش المنسية. لغته هي لغة هؤلاء البشر المطحونين. في السنة الأخيرة كان فرحاً، فقد أصبحت رواياته «بيست سيلر» (أفضل مبيعات) تنفد بعد صدورها. لكنّه كان يرى أن كتبه السابقة مجرد تمارين على الكتابة، وأنّ أيامه المقبلة ستشهد انفجاراً إبداعياً. راح يحلم بأن يكتب أخيراً ما يريد، بعد الصدى الواسع الذي لقيه أدبه، وخصوصاً أنّه شكى طويلاً من قلة عدد القراء، وتجاهل النقد لما يكتب، وتجاهل اليسار له، كأن الانضمام إلى حزب يساري تحت الأرض أو فوقها يعطي للكاتب مشروعية.

في مكتبته، يضع شلبي صورتَي يحيى حقي ونجيب محفوظ. يستعين بهما عند مواجهة الإحباط: الأول هو أكثر الرواد تأثيراً فيه لغوياً وأسلوبياً ومعرفياً. أما محفوظ، فهو بالنسبة إليه مؤسّس فنّ الرواية في الثقافة العربية، ورائد التكنيك الروائي. كلاهما «تميمة» عندما يصيبه الإحباط. يرفع رأسه ليستمد منهما طاقة معنوية وقدرة على المقاومة. ورغم أن عوالمه تختلف عن عوالم محفوظ، كان يرى صاحب «نوبل» أنّ خيري كتب عن القرية ما لم يستطع أحد آخر أن يكتبه. قرية عم خيري قرية سحرية، لكنّه سحر الواقع. فقد خبر قاع القرية الحقيقي بحكم تنقّله بين قرى مختلفة من أجل العمل، بدءاً من عامل «تراحيل» (عمال يجولون القرى للعمل مقابل طعامهم فقط)، إلى حداد ونجار وخياط.

حتى عندما هاجر إلى القاهرة في الخمسينيات، فضّل عيش حياة الصعاليك أيضاً. قدم روايتيه الفاتنتين: «صالح هيصة»، و«منامات عم أحمد السماك»، عن تجربة المدينة الهامشية، معتمداً على صداقاته بشخصيات بسيطة التقاها أثناء إقامته في المقابر. لكن أليست هذه الحياة الثرية بالمعاناة رافداً أساسياً في إبداع الراحل؟ كان يقول دوماً: «كنت سأصبح كاتباً في كل الأحوال. ورثت الإحساس باللغة عن والدي الذي كان شاعراً وسياسياً محبطاً. لكن لو استمرت ظروف عائلتي الاجتماعية على ما كانت عليه باعتبارها من الطبقة الوسطى العليا، كنت سأكتب ربما عن عوالم أرقى طبقياً». وربما كان إحساسه باللغة هو الذي دفع طه حسين إلى أن يختاره لكتابة السيناريو للمسلسل الإذاعي المقتبس عن سيرته الذاتية الشهيرة «الأيام».

في أيامه الأخيرة، كان يتابع بدقة تفاصيل الثورة المصرية، يقلق حيناً، ويفرح أحياناً. لكنه كان يواصل معركته ضد القمع والديكتاتورية، وتحديداً ضد التيارات المتأسلمة، معتبراً أنّه لو قدّر للتيار الديني أن يحكم مصر، «فسنواجه ديكتاتوراً يستحيل إزاحته»!

قبل أيام من رحيله، نشر الجزء الأول من سيرته «أنس الحبايب» عن أيام الطفولة والتشرد

هذا والدي

زين خيري شلبي*

بدأت علاقتي بالكتابة باكراً، وقبل أن أدرك معنى أن أكون كاتباً. مع ذلك، كنت أتعامل مع فكرة الكتابة على أنها شيء عادي. ولمَ لا وأنا أرى والدي خيري شلبي يمتهن الكتابة، ووظيفته التي أسجّلها في أوراق المدرسة الرسمية هي «كاتب صحافي»؟ كنت أعتقد حينها أنني أكتب قصصاً وألغازاً للأطفال على غرار ما كنت أقرأه لمحمود سالم، وخصوصاً في السلسلة العظيمة «المغامرون الخمسة». وكنت أعطي لأبي ليقرأ ما أكتبه، فيحتفظ بتلك الكتابات، ولا يقول لي رأيه... حتى رأيت في أحد الأيام من عام 1982 واحدة ممّا كنت أعتبرها قصصاً، منشورة في مجلة الأطفال العظيمة «ماجد» الإماراتية وعليها توقيعي. وكان عمري وقتها تسع سنوات. لقد أرسلها والدي إلى المجلة... ذلك الأب الذي كنت حائراً بسبب عدم مدحه لما أكتبه، فتح لي من دون أن أشعر باباً لم أستطع إغلاقه بعد ذلك أبداً.

* ابن الراحل وصحافي في «الأهرام»

ذلك الحنين الغامض إلى الموت

القاهرة ـ **محمد خير**

استيقظ كعادته فجراً، فرد أوراق الكتابة، أمسك بصدره فجأة، لكنه لم يتمسّك بروحه طويلاً، أفلتها ببساطة. «عم» خيري شلبي رحل بلا ألم، بمهارة خبير في الموت. قبل سنوات طويلة، تعطّلت سيارة صاحب «موال البيات والنوم» في طريق «صلاح سالم» السريع. بالكاد استطاع الانحراف نحو اليمين، توغّل في منطقة المقابر القديمة «قايتباي»، تعطّلت السيارة لكنّه استطاع العثور على ميكانيكي من سكان المقابر. انهمك العامل في التصليح، بينما جلس الروائي على كرسي قديم يستكمل كتابته. تدافعت الكلمات بلا عائق. وجد في جوّ المقابر الساكن شيئاً غامضاً لم يفهمه. منذ تلك الحادثة، أنفق الأعوام الطويلة يكتب في غرفة في المقابر. أصدقاؤه هم الموتى وأصدقاؤهم من عمال ومهمّشين وهائمين على وجوههم. هناك كتب أعماله الكبرى، ورسّخ نفسه كأحد أهم أعمدة السرد في جيل الستينيات. بعد سنوات أخرى، حاول تفسير الحنين الغامض إلى الموت بأنّه الحنين إلى «فوة» المدينة الأثرية التي تحوي 365 مسجداً وقبة أثرية بعدد أيام السنة منذ العصر المملوكي. هناك، قضى طفولته حيث ولد في محافظة «كفر الشيخ»، وحفر التاريخ وآثار الموتى مكاناً عميقاً في قلبه...

> **أصدقاؤه الموتى والمهمشون والهائمون على وجوههم**

الكاتب المتعدد الاهتمامات والطموحات، أنهى 70 كتاباً بين رواية وقصة قصيرة ونقد وبحث مسرحي، فضلاً عن كتابات فن البورتريه. اهتمامات لا تشي بها طفولته الصعبة والقاسية والمتقلبة إلى درجة العمل مع عمال التراحيل. تعرّف باكراً إلى وجه آخر للحياة نادراً ما كتب عنه الأدباء، لأنهم نادراً ما عايشوه. قادته حياته بعد ذلك، أو ربما قادها هو، إلى المزيد من طريدي المدن وسكان الهوامش. صاغ ذلك كله عبر عمره الروائي، لكنه تبلور في «وكالة عطية» الأشد تعبيراً عن عالمه الروائي. هنا، يعتدي الطالب المتفوق في معهد المعلمين على أستاذه، فيطرد من المعهد، ويسقط فجأة من سقف مستقبله الزاهر إلى قاع المدينة بين الصعاليك والمهمشين والمجرمين الذين تجمعهم «وكالة عطية». المكان هنا هو البطل. مع ذلك، فكل شخصية تستحق البطولة.

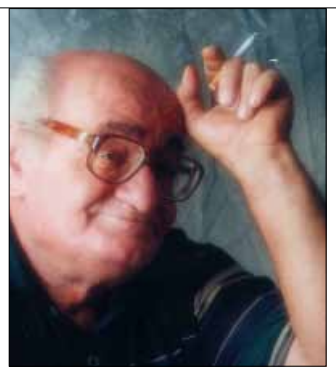

في حياته الغنية، التقى شلبي أغرب الناس، لكن يصعب تصوّر أنه التقى كل هذه النماذج العجيبة في عمر واحد. لا بد من أنه منح شخصياته الكثير من نفسه حتى انزاحت من تخوم الواقع إلى حدود الفانتازيا. هكذا يبدو الأمر أكثر في روايته «صالح هيصة» الذي هو «ملك الكحيانين»، لأنه «كحيان بكل الطرق». ثلاثيته «الأمالي» التي تكونت من «أولنا ولد»، «وثانينا الكومي» و«ثالثنا الورق» تحولت إلى مسلسل «الكومي» على يد المخرج محمد راضي. لم يكن التحويل إلى الفنون البصرية نادراً في أدب شلبي، لكن الفضل الأبقى ظلّ للسرد الروائي، ربما باستثناء «سارق الفرح» قصته القصيرة التي حوّلها داود عبد السيد عام 1995 إلى إحدى علامات السينما المصرية.

رحل الرجل الذي لم يكف عن الكتابة والبحث والعمل المؤسّسي (تولى رئاسة لجنة القصة في المجلس الأعلى للثقافة ورئاسة تحرير مجلة «الشعر»...). كان له في كل ذلك نشاط وافر وخلافات وصداقات وعداوات. ترك كل ذلك ورحل بيقين وحيد أنّ السرد وسيلته الضرورية للحياة.